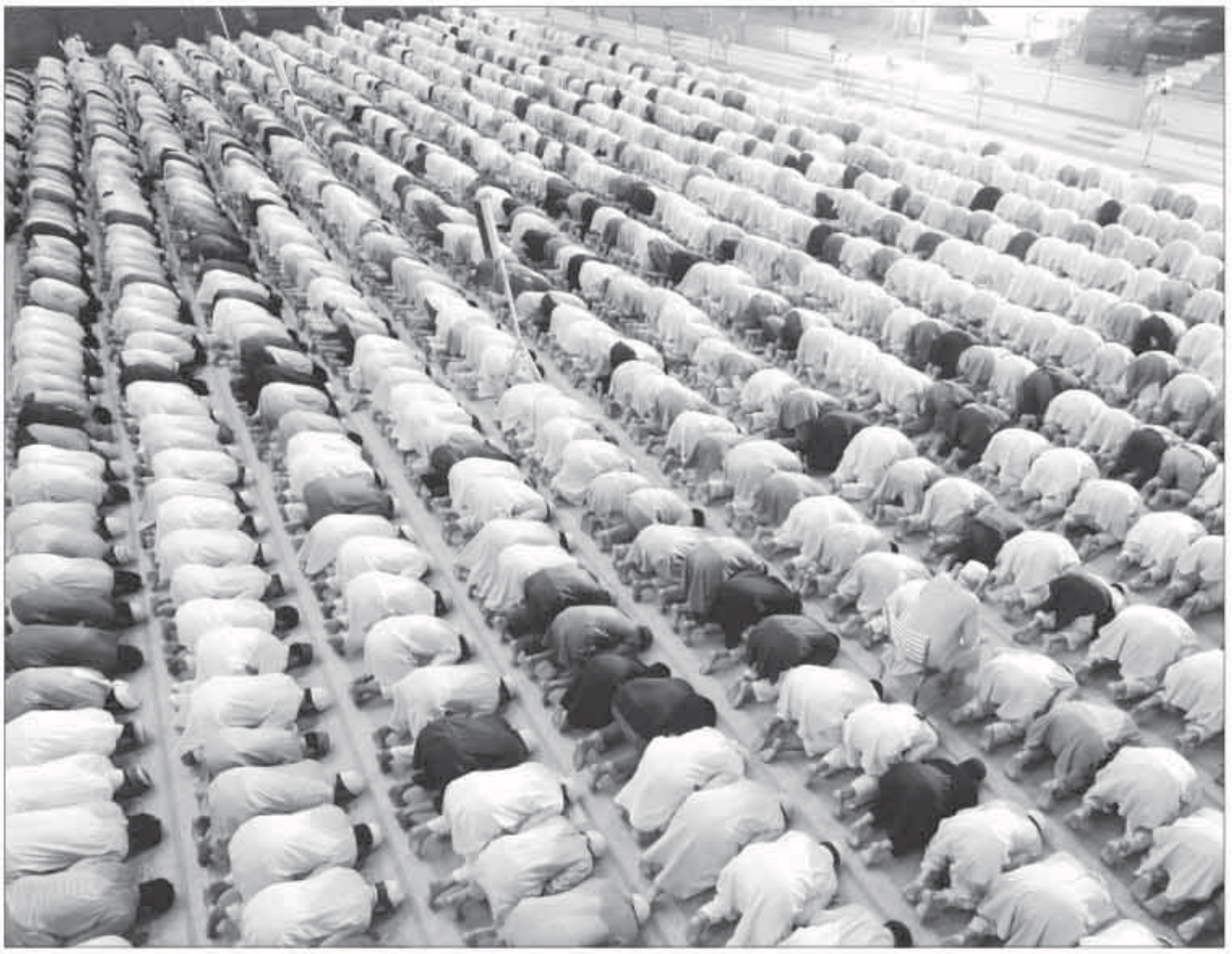

دعاء الصائم مستجاب أثناء صيامه وعند فطره وأنفع الاستغفار ما قارنته التوبة

كان الصحابة يغتسل الواحد منهم ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر

كان يطعمه ويسقيه.

5 – ومنها: اغتساله بين العشاءين، وقد تقدم من حديث عائشة: «واغتسل بين الأذانين». والمراد: أذان المغرب والعشاء.

قال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر.

وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة، ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين، ويلبس ثوبين جديدين، ويستجمر ويقول: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة، والتي تليها ليلتنا. يعني البصريين.

فتبين بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين، والتطيب بالغسل والطيب والملبس الحسن، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات، ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى، وتطهيره من أدناس الذنوب؛ فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئا.

ولا يصلح لمناجاة الملوك في الخلوات إلا من زيّن ظاهره وباطنه وطهرهما، خصوصا ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر إلى صوركم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التقوى.

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وإن كان كاسيا

6 – ومنها: الاعتكاف: ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، «كان رسول الله يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين». وإنما كان يعتكف النبي في هذه العشر التي يطلب فيها ليلة القدر: قطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخليًا لمناجاة ربه وذكره ودعائه. فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه، وكما قويت المعرفة والمحبة له والأنس به، أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال.

ليلة القدر

قال تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر: 1–3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال في شهر رمضان: «فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم» [5]. وقال مالك: بلغني أن رسول الله أري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر.

وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي أنه قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها أيضا. قال سفيان الثوري: «الدعاء في تلك الليلة أحب إليّ من الصلاة». ومراده أن كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسنا.

وقد كان النبي يتهجد في ليالي رمضان، ويقرأ قراءة مرتلة، لا يمر بآية فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوّذ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكير، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها. وقالت عائشة –رضي الله عنها– للنبي: أرأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». والعفو من أسماء الله تعالى، وهو المتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو يحبُّ العفو؛ فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته، وكان النبي يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وعفوك من عقوبتك».

وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملا صالحا ولا حالا ولا مقالا، فيرجعون الى سؤال العفو كحال المذنب المقصر.

أسباب المغفرة في رمضان

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي قال: «من صام رمضان إيمانا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». وعنه رضي الله عنه قال: «من قام رمضان إيمانا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». وعنه رضي الله عنه قال: «من صام رمضان إيمانا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على أن هذه الأسباب الثلاثة كل واحد منها مكفر لما سلف من الذنوب، وهي صيام رمضان، وقيامه، وقيام ليلة القدر؛ فقيام ليلة القدر بمجرده يكفر الذنوب لمن وقعت له، سواء كانت في أول العشر أو أوسطه أو آخره، وسواء شعر بها أو لم يشعر، ولا يتاخر تكفير الذنوب بها الى انقضاء الشهر.

وأما صيام رمضان وقيامه فيتوقف التكفير بهما على تمام الشهر، فإذا تم الشهر فقد كمل للمؤمن صيام رمضان وقيامه، فيترتب له على ذلك مغفرة ما تقدم من ذنبه بتمام السببين، وهما صيام رمضان وقيامه.

فإذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه فقد وفوا ما عليهم من العمل، وبقي ما لهم من الأجر وهو المغفرة؛ فإذا خرجوا يوم عيد الفطر الى الصلاة قسمت عليهم أجورهم، فرجعوا الى منازلهم وقد استوفوا الأجر واستكملوه، ومن نقص من العمل الذي عليه نقص من الأجر بحسب نقصه، فلا يلومَنّ إلا نفسه.

قال سلمان: «الصلاة مكيال، فمن وفى وُفِي له، ومن طفف فقد علمتم ما قيل في المطففين». فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال: من وفاها فهو من خيار عباد الله الموفين، ومن طفف فيها فويل للمطففين، أما يستحي من يستوفي مكيال شهوات، ويطفف في مكيال صيامه وصلاته.

غدًا توفى النفوس ما كسبت
ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

كان السلف الصالح يجتهدون في تمام العمل وكماله واتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده، وهؤلاء الذين «يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ» [المؤمنون:60].

رُوي عن علي رضي الله عنه قال: كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله يقول: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» [المائدة: 27].

وعن الحسن قال: «إن الله جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا». فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون.

ومن أسباب المغفرة فيه أيضا: افطار الصائمين، والتخفيف عن المملوك، ومنها الذكر، ومنها الاستغفار، والاستغفار طلب المغفرة، ودعاء الصائم يستجاب في صيامه وعند فطره، ومنها استغفار الملائكة للصائمين حتى يفطروا، فلما كثرت أسباب المغفرة في رمضان كان الذي تفوته المغفرة فيه محرومًا غاية الحرمان.

فمتى يُغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر؟ متى يُقبل من رُدّ في ليلة القدر؟ متى يصلح من لا يصلح في رمضان؟ متى يصح من كان فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان؟ كل ما لا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فانه يُقطع ثم يوقد في النار، من فرّط في الزرع في وقت البذار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسار.

شهر العتق من النيران

وأما آخر الشهر فيُعتق فيه من النار من أوبقته الأوزار، واستوجب النار بالذنوب الكبار، فإذا كان يوم الفطر من رمضان أعتق الله فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار، فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار.

ولما كانت المغفرة والعتق من النار كل منهما مرتبًا على صيام رمضان وقيامه، أمر الله عند اكمال العدة بتكبيره وشكره، فقال: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة: 185]. فشكرُ من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام، وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم به، وعتقهم من النار، أن يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته.

يا من أعتقه مولاه من النار! اياك أن تعود بعد أن صرت حرًا الى رق الأوزار، أيبعدك مولاك عن النار وأنت تتقرب منها؟ وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها؟!

فيتبغي لمن يرجو العتق في شهر رمضان من النار أن يأتي بأسباب توجب العتق من النار، وهي متيسرة في هذا الشهر؛ ففي صحيح ابن خزيمة: «فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتان ترضون بهما ربكم، وخصلتان لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا اله الا الله والاستغفار، وأما اللتان لا غناء لكم عنهما فتسالون الله الجنة، وتعوذون به من النار».

فهذه الخصال الأربع المذكورة في هذا الحديث كل منها سبب للعتق والمغفرة، فأما كلمة التوحيد فانها تهدم الذنوب وتمحوها محوًا، ولا تبقي ذنبًا، ولا يسبقها عمل، وهي تعدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار.

وأما كلمة الاستغفار فمن أعظم أسباب المغفرة، فان الاستغفار دعاء بالمغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه وعند فطره، وأنفع الاستغفار ما قارنته التوبة، فمن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود، وعزمه أن يرجع الى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول عنه مسدود، وأما سؤال الجنة والاستعاذة من النار فمن أتم الدعاء، وقد قال النبي: «حولها ندندن».

حقوق الجار

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن رمضان شهرُ الترابط، وشهرُ التواصي، وشهرُ التقارب، وشهر المودّات.

والحديث اليوم سيدور حول معنى من هذه المعاني، ألا وهو حقّ الجار؛ فلقد أوصى الإسلام بالجار، وأعلى من قدره؛ حيث قرن الله حق الجار بعبادته – عز وجل – وبالإحسان إلى الوالدين، واليتامى، والأرحام.

قال الله – عز وجل –: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ» النساء: من الآية36.

أما السنة النبوية فقد استفاضت نصوصُها في بيان رعاية حقوق الجار، والوصاية به، وصيانة عرضه، والحفاظ على شرفه، وستر عورته، وسد خلته، وغض البصر عن محارمه، والبعد عن كل ما يريبه، ويسيء إليه.

ومن أجل تلك النصوص وأعظمها ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة وابن عمر – رضي الله عنهم – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مازال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه».

أي: ظننت أنه سيبلّغني عن الله الأمرُ بتوريث الجار الجار.

أيها الصائم الكريم: الجار في الاصطلاح الشرعي هو من جاورك جوارًا شرعيًا، سواء كان مسلمًا أو كافرًا، برًا أو فاجرًا، صديقًا أو عدوًا، محسنًا أو مسيئًا، نافعًا أو ضارًا، قريبًا أو أجنبيًا، غريبًا أو بلديًا.

وله مراتب بعضها أعلى من بعض، تزيد وتنقص بحسب قربه وقرابته، ودينه وتقواه، ونحو ذلك؛ فيعطى بحسب حاله وما يستحق.

أما حدّ الجوار: فقد اختلفت عباراتُ أهل العلم في حدّ الجوار المعتبر شرعًا، والأقرب – والله أعلم – أن حدّ الجوار يرجع فيه إلى عُرْف الناس: فما عُلِمَ عُرْفًا أنه جارٌ فهو جار، ولا ريب أن الجوار في المسكن هو أجلى صور الجوار وأوضحها، ولكن مفهومَ الجار والجوار لا يقتصر على ذلك فحسب، بل هو أعمّ من ذلك وأشمل؛ فالجار معتبرٌ في المتجر، والسوق، والمزرعة، والمكتب، ومقعد الدرس.

ومفهومُ الجار يشمل الرفيقَ في السفر؛ فإنه مجاورٌ لصاحبه مكانًا وبدنًا، والزوجة كذلك تسمى جارة، وكذلك مفهومُ الجوار يشمل الجوارَ بين المدن، والدول، والممالك، فلكل منهما حق على الآخر.

أيها الصائمون الكرام: حقوق الجار على وجه التفصيل كثيرة جدًا، أما أصولها فتكاد ترجع إلى أربعة حقوق.

أولها: كف الأذى: فالأذى على كل أحد بغير حق محرم، وأذية الجار أشد تحريمًا.

جاء في صحيح البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه».

وفي مسند الإمام أحمد، والأدب المفرد للبخاري، وعند الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله إن فلانة تصلي الليل، وتصوم النهار، وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها سليطة، قال: «لا خير فيها هي في النار».

وقيل له: إن فلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بالأثوار، وهي القطع الكبيرة من الأقط وهو اللبن الجامد المستحجر، وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة».

ولفظ الإمام أحمد: «لا تؤذي بلسانها جيرانها».

بل لقد جاء الخبر بلعن من يؤذي جاره، ففي حديث أبي جُحيفة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال له: «اطرح متاعك في الطريق».

قال: فجعل الناس يمرون به فيلعنونه، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما لقيت من الناس؟ قال: وما لقيت منهم، قال: يلعنوني، قال: فقد لعنك الله قبل الناس قال: يا رسول الله فإني لا أعود».

أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والبزار، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

قال علي بن أبي طالب للعباس – رضي الله عنهما –: «ما بقي من كرم إخوانك؟ قال الإفضال إلى الإخوان، وترك أذى الجيران».

فانظر كيف عدّ العباس رضي الله عنه ترك أذى الجيران من الكرم.

ولقد كان العرب يتمدحون بكف الأذى عن الجار، قال مُدَيّة بن الحَشْرم:

ولا نُخْذِلُ المولى ولا نرفع العصا
عليه ولا نُزجي إلى الجار عقربا

وقال لبيد:

وإن هوان الجار للجار مؤلمٌ
وفاقرة تأوي إليها الفواقر

الثاني من حقوق الجار: حماية الجار؛ فمما ينبه لشرف همّة الرجل نهوضه لإنقاذ جاره من بلاء يُنال به في عرضه، أو بدنه أو ماله، أو نحو ذلك، ولقد كانت حماية الجار من أشهر مفاخر العرب التي ملأت أشعارهم، قال عنترة:

وإني لأحمي الجارَ من كل ذلّة
وأفرح بالضيف المقيم وأبهجُ

وقالت الخنساء تمدح أخاها بحمايته جاره:

وجارُك مَحفوظٌ مَنيعٌ بنجوة
من الضيم لا يُؤذى ولا يتذلل

بل لقد غالى العرب، وبالغوا في المحاماة عن الجار؛ إذ لم تتوقف محاماتهم عن الجار الإنسان، بل لقد تعدّوا ذلك؛ فجاروا ما ليس بإنسان إذا نزل حول بيوتهم حتى ولو كان لا يعقل ولا يستجير؛ مبالغة في الكرامة والعزّة، وتحديا لأن يَخفرَ الجوارَ أحدٌ، مثل ما فعل مدلج بن سويد الطائي، الذي نزل الجراد حول خبائه؛ فمنع أن يصيده أحدٌ حتى طار وبَعُد عنه.

الثالث من حقوق الجار: الإحسان إليه؛ فذلك دليل الفضل، وبرهان الإيمان، وعنوان الصدق.

ومن ضروب الإحسان إلى الجار تعزيته عند المصيبة، وتهنئته عند الفرح، وعيادته عند المرض، وبداءته بالسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه، وإرشاده إلى ما ينفعه في دينه ودنياه، ومواصلته بالمستطاع من ضروب الإحسان.

ومن صور التقصير مضايقة الجار، وحسدُه، واحتقارُه، وكشفُ أسراره، وتتبعُ عثراته، والفرحُ بزلاته.

ومن ذلك: إيناؤه بالجلبة، ورفع الأصوات، وتأجيرُ مَنْ لا يرغب الجيران في إسكانه.

ومن صور التقصير في حق الجار: خيانتُه، والغدرُ به، وقلةُ الإحسان إليه، وترك النهوض لحمايته، وقلة الحرص على التعرّف على الجيران، وقلة التفقد لأحوالهم، ومن ذلك: قلة التهادي بين الجيران، والتكبُّر عن قبول هداياهم، ومنعُهم ما يحتاجون إليه من الأدوات اليسيرة، وقلة الاهتمام بإعادة المعار من الجيران إليهم.

ومن صور التقصير في حق الجار: تركُ الإحسان إلى الجار الغريب، وقلة العناية باختيار الجار الصالح، والتفريط به، وقلة الوفاء للجيران بعد الرحيل عنهم.

وخلاصة القول: إن انتظام رابطة الجوار أكبر شاهد على رقي المجتمع، وسمو آدابه، والعكس بالعكس، وبإصلاح تلك الرابطة تطوى عند المحاكم قضايا كثيرة لا منشأ لها إلا عدم رعاية حق الجار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.